

ما لا نعرفه عن الدماغ العراقي!

أ.د. قاسم حسين صالح

كانت السنوات العشر الأخيرة من القرن الماضي قد خصصت لتكون (عقد دراسة الدماغ). ومع بداية الألفية الثالثة تجمعت نتائج مذهلة غيرت الكثير من مفاهيمنا التقليدية بخصوص الدماغ، من بينها: إن الدماغ ليس أشبه بالحاسوب كما كان يعتقد. وإن فكرة استقلالية نصفه الأيمن عن نصفه الأيسر غير صحيحة، وكذلك فكرة إننا نستخدم (١٠٪) منه فقط. وإنما الدماغ يعمل بنصفيه ككل أثناء تأديته نشاطاته، وأنه يمكنه القيام بأبحاث خلايا عصبية جديدة، ويمكنه تغيير تركيبته ووظائفه أيضاً! بعد أن كانت الفكرة السائدة ترى أنه معد ومبرمج وراثياً بتركيبة لا يمكن تعديلها.

وما يعيننا هنا أن علم الأعصاب الحديث توصل إلى أن نوع البيئة (الكر: نوع البيئة) التي يعيش فيها الإنسان تحدد إلى درجة كبيرة نوع الدماغ ونوع وظائفه، بل حتى الإبداع أيضاً، وتزيد أكثر، إن الدراسات توصلت إلى أن الثقافة نفسها تغير في الأدمغة! لتطيق هذه الحقائق العلمية على بيئتنا (الطبيعية والاجتماعية) المحملة بما لا يطاق، وتناخذ مجال (الانفعالات) فقط، فقد توصلت البحوث الحديثة إلى أن فاعلية الدماغ انفعال حزن مصحوب بتهديد بغضب مرتبط بالإحساس بالعجز. وهذا ما تعرض له الدماغ العراقي على مدى ربع قرن، لاسيما في السنتين الأخيرتين حيث الانفجارات بأزواها، وعجز الناس، لا بل حتى السلطة عن إيقاف استمرارها.

وتوصلت الدراسات إلى أن الضغوط الصحية بالتهديد تؤثر بشكل خطير في كيميائية الدماغ، وتجبره على أن ينشغل بإصدار الأوامر إلى الغدد الأدرينالينية لتفرض هرمون (الكورتيزول) بمستويات مرتفعة وبشكل مزمن، الأمر الذي ينجم عنه موت خلايا الدماغ لاسيما في (القرين الأول) المتخصص بالذاكرة. وأظن أن لهذا السبب صغار العراقيون يعانون الانسيان!

كما أن إطلاق (الكورتيزول) بكميات كبيرة يؤدي إلى انخفاض مستوى هرمون (السيروتونين) الذي ينجم عن انخفاضه العنف والسلوك العدواني. ولا حاجة للتدليل على أن العراقي صار عنيفاً حتى في بيئته، فضلاً عن أن قلة (السيروتونين) تسبب الاكتئاب والصداق النصفى (الشقيقة). وما لا نعرفه أيضاً، أن التأثيرات الاجتماعية تعمل بطرائق معقدة لإثارة أو تعطيل نمو الدماغ ووظائفه. ففي البيئات المفعمة بالأمن والراحة، والثرية بالتنبهات المعرفية (الترويح مثلاً) ينمو فيها الدماغ على أروع ما يكون!

أما في البيئة العراقية التي هد نسيجها الاجتماعي وأهان طبيعتها النظام السابق والاحتلال والإرهاب، فأنتنا لو اطلنا بالأجهزة الحديثة على ما أصاب أدمغتنا منها، لحدنا الله أننا مازلنا غلاة! وثمة وصية للعراقيين، أن أكثروا من أكل السمك، فهو غذاء الدماغ المفضل

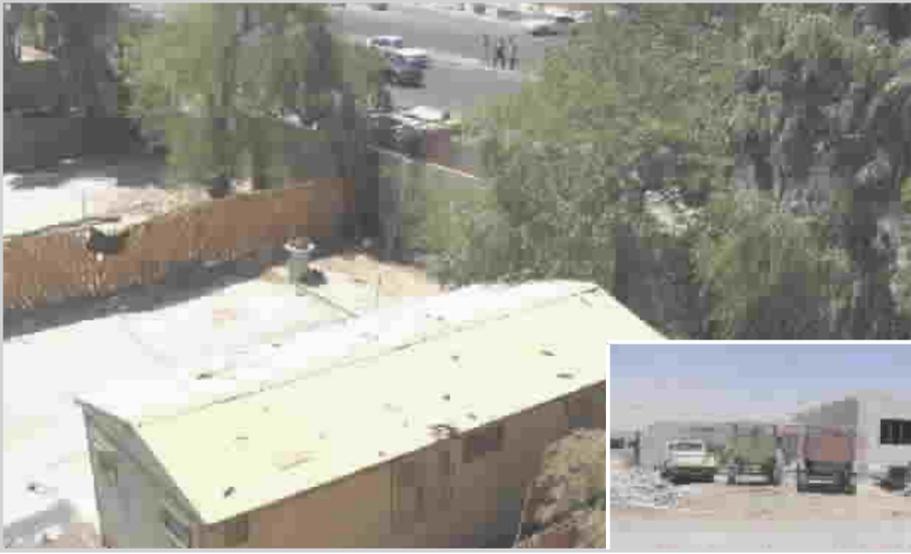
أمام أنظار الجمعية الوطنية ووزارتها الإسكان وحقوق الإنسان

يحملون الجنسية العراقية ويسكنون في العراق وتحت الجسور

فارس كمال نضحي
عادل صادق جيوري

(٢٥٠٠) دينار. كنت أسكن في بيت صغير مؤجر بمدينة الصدر، ثم جاء أشخاص هددوني بالمغادرة فوراً لأن هذا البيت على حد ادعائهم (مال تبعية) وهم الأصحاب الأصليون للبيت، فتوسلت إليهم أن يتركوني في البيت مقابل إيجار أدفعه لهم، فرفضوا، وتعرضت للتهديد منهم عدة مرات، ففرحت إلى هذا المكان خوفاً على طفلي وزوجتي التي أصبحت تهددني كل يوم بالسفر إلى اهليها في البصرة إذا لم أوفر لها سكناً لأنقاذ أبن أروح؟ ما هو الحل لكي أحصل على دخل محترم؟ هل أصبح عضواً في عصابة أو في شلة حرامية أو إرهابياً؟ والمضحك يا أخي أن المفلس في القافلة ليس آمناً كما يقال، فقد سرق طباخي قبل مدة، وبعده سرق تلفزيون لنا كنا نحفظ به ولا نشغله بسبب عدم وجود كهرباء لدينا!.. أرجو أن توصل صوتي إلى من يهمهم الأمر: لا نريد تعويضات ولا معونات ولا قروضاً، نريد سقفاً وبضعة أمتار مربعة مسجلة باسمائنا على أرض (وطننا)!

تلك كانت عينات صغيرة ومحدودة لمجتمع بغدادى كامل يقطن في العراق، تحت الجسور، خارج الحضارة، في أعماق الذل والمهانة والسيان!



عوائل تنام وتطبخ وتطرح فضلاتها في غرفة بلا ماء ولا كهرباء

مطاليبهم: نريد سقفاً وبضعة أمتار مربعة مسجلة باسمائنا على أرض وطننا

جتمع كامل يقطن في أعماق الذل والمهانة والسيان

ما الحل؟! لكي نثاق عن الديباجات الإنشائية، ولكي لا تنزلق الجهات التشريعية والتنفيذية في الدولة إلى فخ تضريح لجان (مختصة) لمعالجة أزمة هذه العوائل المشردة، فتصبح هذه اللجان عبئاً (أو فساداً) بيروقراطياً ومالياً جديداً يضاف الى كاهل الشعب، وتفتح الخطة الإجرائية المتسلسلة الآتية، والتي يمكن أن تتسع لتشمل حالات التشرد بكافة أنواعها، سواء الناجمة عن الفقر والبطالة، أم عن التهجيرات الطائفية والعرقية، أم عن العمليات العسكرية.

١- تقوم وزارة حقوق الإنسان، والمهاجرين والمهاجرين، بحملة ميدانية شاملة لحافظات العراق، تبدأ (كمرحلة أولى) في مدينة بغداد وضواحيها، لجرد هذه العوائل المشردة في قوائم يضعها خبراء في الوزارة وفق معايير قانونية واقتصادية واجتماعية موضوعية، بعد التحقق من عجز أرباب هذه العوائل عن توفير سكن ثابت ولائق لهم.

٢- بالتعاون مع الخطوة (١) أعلاه، يقوم البرلمان العراقي بتشريع (قانون) يلزم وزارة المالية ووزارة الاعمار والإسكان أو أي جهات تنفيذية مماثلة، بتوفير التخصيصات المالية الكافية لتغطية نفقات استحداث أحياء سكنية لائقة للعوائل التي تم تشييدها في قوائم الجرد المشار إليها أعلاه. وكخطوة أولى تسهم في توفير جزء مهم من هذه التخصيصات المالية، فنقترح على البرلمان تأسيس صندوق بعنوان (صندوق إسكان العوائل العراقية المشردة) تجمع موارده من استقطاع (نسبة) ١٠٪ شهرياً من رواتب موظفي الدولة ممن تتساوي رواتبهم الشهرية أو تزيد عن (الفي دولار) يربح فيهم رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء وأعضاء البرلمان، ولدة مفتوحة تنتهي مع إيجاد حل نهائي لهذه الأزمة.

٣- تتولى وزارة الاعمار والإسكان تصميم وتنفيذ المجمعات السكنية الواردة في القانون المقترح أعلاه، بعقول وأيد عراقية خالصة.

٤- يحق لنقابة المهندسين العراقية، ومنظمات المجتمع المدني ذات الصلة، الإشراف الفني والقانوني والإداري والمالي على تفاصيل هذه الخطة، وبالتنسيق مع لجنة برلمانية متخصصة.

على الصداقات إلى أن يشفيني الله. لدي ولد عمره (٧) سنوات يعمل صانع (جايجي) بيومية (١٥٠٠) دينار. ليس لدي بطاقة تيوبونية منذ أن كنت في سكني السابق في (أم العاليف) حيث كنت عاملاً هناك وأعيش في غرفة عند أحد أقاربي الذي طردني فيما بعد لكي يتزوج ابنته فيها! ماذا أعمل؟ أين أروح؟ فسكنت هنا مؤقتاً حتى أرتب حالي وانتقل إلى سكن أفضل، ولكنني أصبت بعدها بهذا المرض في صديري من جراء كثرة الأوساخ والنفايات ورائحة القذائف والرصاص، إضافة إلى صدى أصوات الانفجارات التي تجعلنا نشعر بأن الجسر على وشك السقوط على رؤوسنا. ولكن بعد أن نهذا الأمور في كل مرة، نشكر الله ونحمده على كل مكروه. فكرت في أن أقدم طلباً للحصول على معونة أو إيجاد حل لمصيبتنا، ولكن لن أقدم؟ كل واحد حابر بنفسه... الله المشافي والمعين)!

إنتي رجل مستور وصاحب بنات ولا أحب المشاكل). وعندما سألتها عن مخاطر السكن تحت الجسر، أجاب: ((إنها كثيرة، منها الخوف من أن يقصف الجسر من أي جهة، أو من الرمي العشوائي، أو من الأمراض بسبب وجود حشرات وحيوانات سائبة كثيرة في المنطقة)). وعندما قاطعتنا (أنا على) ((الله يخليك أكو واحد يعيش بها لكان.. غير من الماكو، الباردة ابني علي عوايه كلب من ايده، وبناتي نومهن كله عوايه بس)). وتساقطت الدموع من عينيه. وعندما استفسرنا عن مدى إمكانية تقديم طلبات إلى جهات رسمية، كوزارة حقوق الإنسان أو وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، أو أي جهات خيرية أو دينية، من أجل الحصول على قروض أو مساعدات أو مسكن لائق، تنهد (أبو علي): ((أخي العزيز، لا فائدة من ذلك، فقد سبق أن قدمت طلب عمل إلى وزارة العمل قبل عام ونصف، ولا جواب حتى اليوم، وتريد أن يعطوني سكتاً!)).

المرافق الصحية في المصطح

السيد (م.م.ن)، لندية زوجة (٣) أطفال (بنت واحدة وولدان) تتراوح أعمارهم بين (٢-١٠) سنوات، يسكنون في بقعة أخرى من الخط السريع نفسه (محمد القاسم)، في المساحة المقابلة لمستشفى الكندي، في (خيمة) من (الجدران) لا تتعدى مساحتها (٤) أمتار مربعة، فتشرفها (حصران) قديمة جداً، وتضم طباخاً غازياً صغيراً وبضعة قفود من النافذون وثلاثة فوانيس نفضية للإنارة، إذ لا تصلها الكهرباء، فضلا عن حفرة عميقة للتخلص من الفضلات مغطاة بلوح خشبي. وبعد أن اطمان السيد (م.م.ن) إلى مهمتنا الاستطلاعية، تدفق قائلا: ((أنا عاطل عن العمل هذه الأيام لأنني مريض في صديري ولا أقدر أن أعمل. أنا وعائلتي عايشين

مبان حكومية وسجون ومعتقلات ومعسكرات ومقرات حزبية وأمنية سابقة. وتعد هذه الظاهرة الفصحى الأكثر حداثة وأساسوية في ملف المعاناة المزمنة لشعب العراق، فحاولنا استقصاها ميدانياً، عبر لقاءات مباشرة أجريتها مع عدد من العوائل القاطنة تحت جسور الخطوط السريعة ببغداد، في وحدات سكنية رثة لا تصلح حتى للحد الأدنى من متطلبات عيش أي كائن يتمتع بقدسية الحياة.

السكن وسط الحيوانات السائبة

السيد (أبو علي) رب أسرة مكونة من زوجة و(٤) أطفال (ثلاث بنات وولد) تتراوح أعمارهم بين (٤-١٥) سنة، يسكنون تحت الخط السريع المسمى (محمد القاسم)، وتحديداً في الأراضي المفتوحة مجاور مستشفى الجملة العصبية. في غرفة واحدة مشيدة من الطابوق غير المبوخ، بمساحة (٢٠٣) متر مربع، بابها مضمون من (الجنكو) الصاير، وبلا تأسيسات كهربائية أو مائية. المطبخ عبارة عن (جولة) صغيرة وقدر قديمة وأواني بلاستيك مبعثرة. أما المرافق الصحية فهي (حفرة) خارج هذه الغرفة ومغطاة بلوح من البلاستيك المتهري. حدثنا (أبو علي) قائلا: ((لدي (جنبر) أبيع فيه السجائر في الشارع قرب سكني هذا، ودخلي اليومي يتراوح بين ألف إلى (٤) آلاف دينار، واليوم الذي لا أعمل فيه لا مورد لي فيه. لدي بطاقة تيوبونية من سكني السابق في (حي الشعلة) الذي استوطننا فيه لسنوات طويلة بعد هجرتنا من الناصرية. أما الذي أوصلنا إلى هذا الحال فهو الارتفاع الشديد في إيجار البيت السابق الذي كنت أسكنه، من (٥٠) ألف إلى (١٥٠) ألف دينار، وهو مبلغ يتعدى علي جمعه في الظروف الحالية، ثم

الطفل وتشخيص مشكلاته عن طريق ملاحظته في أثناء اللعب، إذ يختلف سلوك الطفل المضطرب نفسياً وهو يلعب عن سلوك الطفل الصحيح نفسياً. ففي إحدى الحالات كانت طفلة تغار بشدة من أختها الصغرى فأعطاها المعالج دمييتين مختلفتين في العمر للعب بهما، فلاحظ أنها بدأت بعد دقائق بضعف وجه الدمية الصغرى وضربها. وهناك أطفال يعانون من اضطراب نفسي شديد بحيث يكون سلوكهم على درجة من الغرابة لا تترك حتى للفردي العادي مجالاً للشك في اضطرابهم، إذ يظهر أثناء اللعب درجة كبيرة من الخمول فلا يجنون في صالة الألعاب المليئة بالدمى ما يثير اهتمامهم إلى حد أنهم ينزفون في أحد الأركان أو يجذبون بأصابعهم أو بأجسامهم حركات رتيبة تتسم بالغرابة. وقد وصفت هذه الحالة على أنها استغراق في الذات أو في الرغبات الذاتية.

ولكي تكون عملية التشخيص صائبة وموضوعية، يرى المختصون في هذا المجال ضرورة توافر جملة من الشروط هي:

١. لابد من وجود قاعة للألعاب (حجرة للعب) لهذا الغرض تستخدمها السلوكيات الأطفال وتصنيفها وتشخيصها ضمن معايير مقننة بعيداً عن الارتجال والعشوائية في إطلاق الأحكام.
٢. العمل على رفع قيمة التشخيص وتحديد خطواته وفق أهداف سلوكية

كيف يساعد (اللعب) في تشخيص الاضطراب النفسي لدى الطفل؟!

علي عبد اللطيف الخزرجي



٤. حينما يكون اللعب بمواده وأنشطته لا يتلاءم مع المرحلة العمرية للطفل، إذ يكون سلوكه وسيلته للارتداد والنكوص إلى مراحل عمرية سابقة.

٥. حينما يكون جسم الطفل مع محور لعبه وليس أدوات اللعب، مثل مص الألعاب أو تقبيلها أو احتضانها أو ملامستها لمناطق جسمه الحساسة، إن مثل هذه الأفعال ليست لعباً.

٦. حينما يكون اللعب وسيلة مباشرة للتفريغ عن المحتويات العدوانية أو غير المقبولة اجتماعياً، كضرب طفل آخر أو تدمير وتحطيم الألعاب.

٧. ويتفق معظم علماء نفس الطفولة على أن معظم اضطرابات السلوك لدى الأطفال هي رد فعل لما يعانونه من بيئتهم، كحرمانهم من الوالدين أو عداة الوالدين لهم، أو رفضهم ونبذهم وعقابهم وتكليفهم بمهمات لا تستطيع قدراتهم المحدودة القيام بها، فيلجؤون إلى أنواع مضطربة من السلوك في محاولة للتغلب على حرمانهم وإرغام من حولهم على إشباع حاجاتهم الأساسية المختلفة.

٨. إن الوجود الإنساني في جوهره هو وجود في حضرة الآخرين، معهم وبينهم، رغبة فيهم وأنس إليهم والتعاضد بهم وصراع معهم من أجل الاعتراف بهذا الوجود الراجب. وما السواء والاضطراب في حياة الإنسان إلا تعبير عن ذلك التآرجح بين القبول والرفض من الوالدين اللذين يمنحان الوليد شرعية الوجود في العالم.

محددة وواضحة.

٣. إعطاء أهمية للألعاب الفنية المختلفة للطفل، لما لها من قيمة تشخيصية كبرى من ناحية، ولقابليتها على أن تتحول إلى ألعاب بناءة في الشخصية.

٤. أن تميز الألعاب المستخدمة لهذا الغرض بين ردود أفعال الأطفال ذوي المشكلات والأطفال العاديين عندما يتعاملون معها.

٥. وأخيراً، أن يحمل اللعب في طبيته خصيصه الحب الداخلي من أجل إظهار ردود الأفعال والمشاعر الحقيقية للأطفال.

ومع أن الحد الفاصل بين السلوك السوي وغير السوي أمر يصعب تحديده بشكل قاطع، ذلك لأنه يتأرجح بين أوضاع ومعايير ومحددات ثقافية واجتماعية مختلفة، فلقد اتفق العلماء والمختصون في هذا المجال على وضع محددات تفصل بين حالتين السواء والاضطراب في اللعب، ويمكن إيجاز هذه المحددات بالآتي:

١. حينما يكون الطفل عاجزاً عن اللعب أو الدخول فيه بأي حال، أو أن يكون اللعب منحصراً في موضوعات قليلة.

٢. حينما يكون اللعب تكراراً وبدون أهداف أو معنى أو نهاية، ويكون الطفل خلاله غير قادر على أداء غيره أو التوقف عنه.

٣. حينما يفقد الطفل قدرته على التوقف عن اللعب رغم رغبته بذلك، أي أن يكون عاجزاً عن إنهاء اللعبة.

الطفل والركض والرمي لا ينمو جسمه بصورة صحيحة، والذي لا يلعب بالدمى والحجارة والألعاب الأخرى التي تحتاج إلى محاكمات عقلية لا يتم نموه العقلي كغيره من الذين يمارسون هذه الأنشطة والمعالجات والألعاب. وهكذا يمكن أن يكون اللعب بعد ذاته عملية تشخيصية تتخذ أبعاداً متعددة، تتراوح بين حالات السواء أو حالات بدائية من المشكلات السلوكية، وبين حالات تمتاز بشدة نسبية من الاضطراب النفسي لدى الأطفال، خصوصاً في المرحلة العمرية التي تمتد من عمر (٤-٦) سنوات، لما تتسم به من تغيرات نمائية سريعة في كل الجوانب المعرفية والانفعالية والأخلاقية.

فالعاب مرآة تعكس ما يعاينه الطفل من انفعالات ومشكلات، فتتكشف أزماته ورغباته وميوله واتجاهاته، لأن للطفل في اللعب عشوياً وعلى سجيته: فضلاً عن ذلك يؤكد المعالج أو المرشد النفسي على أهمية التعبير الرمزي في اللعب لتشخيص ما يعاينه الطفل، إذ يقص الطفل قصصاً واضحة المفرد حول علاقته بوالديه وإخواته ورفاقه، وقد يستخدم (أي المعالج) لهذا الغرض اختبارات اللعب الإسقاطية التي تكون على شكل دمي تمثل للطفل شخصيات بشرية أو حيوانية لها صلة بحياته، ما يسهل عليه التعبير عن انفعالاته ورغباته الشعورية واللامشورية. كما يمكن دراسة سلوك

اللعب حاجة أساسية لدى البشر، تظهر بداياته مع بداية حياة الطفل بأشكال متنوعة، من ركض وقفز وتسلق والعب مختلفة مع نفسه وأقرانه. ويعرف اللعب سيكولوجياً بأنه نشاط يقوم فيه الأطفال بالاستمتاع والاكتشاف للأصوات والألوان والأشكال والأحجام وكل العالم الذي يحيط بهم، إذ يظهر قدراتهم المتنامية على التخيل والإنصات والملاحظة والاستخدام الواسع للأدوات، وكل ذلك للتعبير عن أفكارهم وللتواصل مع مشاعرهم والأخريد.